

ضياء نجم في غابة

دفتر يوميات وقصائد بعيداً عن البيت



لوحة حسين طريبه

البرهة العربية الراهنة، لا تبحث إلا الأسي والام، بعيدة كانت أم قريبة. أسرح النظر في الأشجار العتيقة الملتفة بجذوعها وأغصانها وجذاميرها غير عابئة بحروب البشر وفنائهم، يُقارب سيرة (روسو) ويختزلها، مما جعل انسجام النظر والتحديق الشارد في أشجار الغابة الصغيرة مع مقولات روسو ورؤا التي تشبه الشطح الصوفي، حول الحضارة وقذاريتها المرضية والوراثية «إن تقدم العلوم والفنون يفضي إلى إفساد الأخلاق... وحينئذ إلى (إنسان الطبيعية) الفلجري الحر المطمئن الذي لا تُحرك حياته المصالح والصراعات التي بالضرورة تفضي إلى سفك الدماء والمجزئة...»

وبالبالغ الطرافة والمفارقة في هذا السياق، حين بعث (روسو) بمشروع كتابه (خطاب التفاوت بين البشر) إلى (فولتير) والآنان من أبرز مفكري عصر الأنوار والعقلانية الحديثة الذي مهد بشكل حاسم لانبعاث الحضارة الأوروبية والبشرية. ضاق فولتير ذرعاً بمقولات زميله المشطوط والهجس العليل والبناء الحضاري وإنجازاته الدستورية والمؤسسية والقانونية (العقد الاجتماعي) وبين حينئذ إلى فجر بدايات الكائن على هذه الأرض والقطرة والغريزة، فكتب فولتير رده الساخر «لم يُسخر أحد قوره بقر ما سخرت أنت لكي تجعلنا شبهيين بالبهايم، يستتهي الإنسان حينئذ يقرأ خطابك أن يعيش على أربع».

لو أطل (روسو) راهناً من قبره سيرى ما أنجزته الحضارة من عظمة وابتكارات كان نزوعه إلى نقيضها، رغم مساهمته الفاعلة في صياغتها، لكنه يرى بشكل أكثر انسجاماً مع رؤيته وحُسنه، ذلك الجانب المظلم الوحشي الدامي في السحق والتدمير على مستوى الكوكب الذي انقرض منه شبح (الإنسان الطبيعي) وضمحل ليجد رجال الأعمال والفتاوات الطبقة، بارقامها الفلكية ومسوخات الجشع والمال.

تبدى (روسو) أنه من ذلك الرعيل من الفلاسفة النادرين في تاريخ المعرفة ربما، أولئك الذين يغنيهم فكر التناقض ويغريهم التباين الغريب بين الواقع والحلم والحنين، فهو يعرف استحالة بعث «إنسان الطبيعة»، والوقائع راهنا ومستقبلاً هي التي تُؤرخ للتقدم الحضاري علماً وفناً وابتكارات لا تنتهي عند حد، لكنه احتفظ بحلم الشاعر وحده العميق.

الدلالات حد الانفجار، تبادر إلى ذهني أن قائلها يقطن بلداً مثل فرنسا طقساً واجتماعاً وحضارة، حيث الجلوس الاختياري في تلك الغرفة الموصوفة، يمكن أن يكون مختبراً بلخص العالم، الأماكن المغلفة بالطقوس، جلوس حر في غرفة تمتد لأمتار، لكنها بحجم الكون دلالة ومعنى، يمكنها أن تمتص الشر والعنف اللذين هما من طبائع البشر الأكثر عمقا وأصالة، ويتجنب صاحبها الارتطام بالخارج حيث يسكن الشر وينتشر العنف الصامت الخبيء أو الصراخ الفصيح، اللجوء إلى الغرفة لجوء إلى سكينته الداخلي وهدهوه مقابل الخارج وصخبه.

بهذا المنحى تأخذ الغرفة بعدها الرمزي وليس المكاني فحسب. لكن انطلاقاً من هذا الأخير وسماته المتجسدة في غرفة يحتويها منزل وحي ومدينة أو قرية، لكن بما أن شذرات من هذا النوع «حمالة أوجه» فهذا (والعبارة الأدبية عامة على الأرجح كذلك) البعد الواقعي الحسي للغرفة، ينقلب دلالياً، إذا كان في بلد عربي على سبيل المثال وخليجي على الأخص، حيث اللجوء إلى الغرفة أو الأماكن المغلقة بالتكييف والهواء الصناعي ضرورة وإجباراً كهروب من جيروت الطقس وحرارته البالغة، هنا ينتفي فعل الاختيار في معظم أوقات العام، للجلوس الحر في الغرفة داخل البيت، لينطلق منها الخيال المنصر إلى مناطقها الشاسعة ممتصاً عنف الخارج المدلهم الذي يغري عنف الداخل الخبيء بالانطلاق والانفجار.

فتجسد الشر بكسلوك ونمط حياة، أفراداً وجماعات ودولاً.. لكن العزلة، إذا أخذنا الغرفة كمعدن رمزي للعزلة عن الحشد وقيم القطيع المهيمنة، تبقى ضرورة في كل زمان ومكان، ولا يمكن للإنسان، البدع خاصة، أن يحقق شيئاً ذا معنى إلا في ظلالها العميق.

العبارة حمالة أوجه ودلالات وربما ثمة بعد لاهوتي فباسكال بجانب صفته كعالم فيزياء وفيلسوف فهو لاهوتي يربط الوقائع والنظريات بأبعاد لاهوتية. وربما غير ذلك.

«إن الدودة هي الإمبراطور الوحيد والأكثر خبرة»، بشأن التغذية، فنحن نسنن الكثير من المخلوقات لكي نسنننا، ولكننا نسنن أنفسنا للديدان...»

أقرأ هذه العبارة لشكسبير التي تعيد للحن الجنائزي لمآلات البشر ومصيرهم وتذكر الأباطرة عبر التاريخ، بأنهم ليسوا أعظم من دودة الأرض، فإغرة شدقيها بشيق انتظار زيارتهم الأخيرة. الدودة أو الديدان التي سيكونون مع حاشيتهم وجندهم في ضيافتها الألفية عمّا قريب... هذه المرة هي التي ستغمرهم بركها ودفق نعمها السامية جهة الافتراس والتكبير والحمو.

لكن الأباطرة لا يريدون أن يتذكروا، أن يعكس صفو معيشتهم وبذخه أي معكر، مهما كانت بدايته وحتميته الصارمة التي لا فسك منها. رغم كل التناغم والقصور والأسوار العالية والجيوش (... الفيت كل تميمه لا تنفخ) الأباطرة لا يبرعون عن غواياتهم وظلمهم الساسق لحياة البشر والحيوان والنبات، حتى تستلمهم تلك الهوام الأسطورية كي تذركهم بماضيهم المجيد، وربما الندم ولات ساعة مندم، وربما سيكونون في مكان آخر خارج الندم والغبطة والعقاب.

لكن الأكيد أن الدودة-الهامة، ستكون في استقبالهم كامل جيروتها وكامل الصفات التي كانت تزين حياتهم ببريقها السحري الأخاذ... أقرأ العبارة الشكسبيرية على سبيل الصدفة في الحديقة العامة بهذه المدينة الوليئية ذات الصيف الشتوي الممطر فوق البحر وعلى قنوات الأنهار، حيث قرصانة الشمال كانوا يعبرون بلحاهم الصهباء المخرجة بالعواصف والنبذ والذين لم يكونوا بحاجة إلى قراءة شكسبير أو إليوت، كي يتذكروا ويدركوا صواق الحياة والمالات والمصير، فهم يمتطون وقائعها اليومية وأشباحها المتناسلة، في ظلمات المياه والأعماق كل لحظة وهنيئة تحملهم إلى الأبعد والأكثر خطورة ووحشية. الحان الكنائس في غزارة إجراسها تتوالي مججلة في هذا الفضاء المدلهم البهيج.. إنه يوم أحد...

حقاق بها من انقلابات وصدوع، أفضت إلى هذا القبح شبيه المطلق، أرض غبراء كابية لا تنزل النعمة ساححتها ولا تنزل الرافة والحنان.

القرويات يحملن الغروب في جرار الفخار على الرؤوس والاكثاف الحطايون، أحلام الشجر المكسور وقوداً لثناء قادم رجال الأعمال يحملون الحقائق المثقلة بالمظالم والجروح...

عطر حضورك يملاً أفاقي بحكمة الورد وجنون الأطفال.

كم أنت واهية للحياة أيتها الأشجار أيتها الجبال والغابات كل هذه الحيوانات، ما ظهر منها، وما بطن أكثر، ترعى وتتغذى في ظلال مجدك الناسق. كل هذه الطيور والحيوانات، والجوارح والسباع، تتناسل جيلاً بعد آخر في أزلك الذي بلا حدود.. يبرغ نمر مرقتش من زرقتك الحالكة. النمر يحمل جمال الآلهة وتمرد إبليس ذئب يعوي على مقربة من بحيرة ذئب الفدق يعوي قرب البحيرة التي انحصر في تخومها (لودفيك الثاني) من فرط عواصفه ورؤاه.. مزداثة بالنجوم والنيازك أنت تتساقط مع الأوراق الخضرة الأرجوانية في حُضنك التليد أيتها الناطقة بلسان الغيب ولهيب الحواس.

«في كل حبة رمل يمكن أن نرى العالم بأكمله...»

كم من العوالم في رمال البحار العُمانية الشاسعة! لكن القوم لا يرون البحر والرمال، ولا يرون أنفسهم.. عمى ورائي ومكتسب، مُستحكم وعندي.

مع كلبتها (آخر ما تبقى من حطام الدنيا) تتذره في الحديقة ذات الأبراج والتماثيل، المرآة المسخة ذات المظهر الأستقراطي. لا تتذكر مجد الحضارة، ولا مغامرات الجسد والمعرفة، والذاكرة.

مثلما حبة الرمل تلخص عالماً في رحابتها اللامرئية، فهذا العصفور الصغير الأصهب الذي يتقافز أمامي في صباح ماهول يغيوم تظل من قسماتها شمس رحيمية، يلخص عالم الطيور والغابات في حركته وصوت وجيهه الرباني، يسرخ وكأنما في حقول أبدية خالدة...

الخلود يتناهى أحياناً في حيوات متناهية الصغر. تكاد لا ترى على وجه البسيطة والتاريخ الصاخب بالقادة والرموز، بالحروب والاكتشافات والإساطيل النرية..

بعد قليل: تذهب الأشجار إلى غروبها تعانق الظلال والأشباح.

«من أخطائه المنايا قيّدته الليالي والسنون» (الخليل بن أحمد)

في الركن القصي من مقهى كوستا المضاء الجوانب والحواف، نرى النذل جيئة ونهابا، وسط غيمة خفيفة وكأنما في كهف، أشباحه ورسومه تتموج بفيض غموضها السحيق. من طاولتك تنظرن إلى ركني القصي نظرة عاشقة أضناها غرام البحث عن ضالة جوهرها الشريد. سرحت في رجاب النشوة طويلاً تخيلت دموعاً وأشجاراً برية، عصافير وغنماً يسرح بها عذارى وعشاق.. لكن الاكتشاف لم يكن اليماء، حين عرفت أنك لا تنظرين إلى أحد.

كان هولاء يزهو بكبريائه فوق الجبال والهامات دانت له الأمم والممالك أخصنته تخطف البرق والطين من وكنايته قبل أنيلاج ضوء الصباح وحين حانت ساعة احتضاره لم يتذكر إلا مؤخرة امرأة قوقازية تهتز بمشرب في الساحة العامة بينما الجثث تتوزع في الجنبات والأفاق.

لست من العابرين ولا من المقيمين. لست إلا ذلك الشبح الامرئي وهو يحوم فوق جثة تاريخ أحالته الأعاصير الهوج إلى أتلاء وركام.

الراجلون في بهو الفندق، بالمناكب والاكتاف يتدافعون تدافع الموتي في قبورهم التي تبعثرت من غير شواهد ولا أشجار. مؤلفة الفندق في حركة عاصفة لا تفكر إلا في آخر الأسبوع وعطلة هائلة.

من أين يأتي كل هؤلاء التائهين الحيارى والثقبلي الاحمال؟ من كل الجهات يتدفقون كهدير مياه أسطورية.

لم يعد هناك مسيح يُسند أرواحهم التي توشك على الاضمحلال.

غروب على دير الراهبات يسيل شيقاً على النحور والشفاه غروب على كتنة للعسكر غروب على ضفاف الأحلام غروب على مكبرات للصوت تنعق بالكوابيس والوعيد غروب على الصبايا المراهقات يتقافرن على حبال الأمنيات غروب على المقابر والجوامع والإسبيلات غروب على الشعراء والعشاق على الجالدين والسجون غروب يحمل البلاد إلى حثفها في مقبرة السلالات...

الخلود يتناهى أحياناً في حيوات متناهية الصغر. تكاد لا ترى على وجه البسيطة والتاريخ الصاخب بالقادة والرموز، بالحروب والاكتشافات والإساطيل النرية..

بعد قليل: تذهب الأشجار إلى غروبها تعانق الظلال والأشباح.



سيف الرجبى شاعر عُماني

«من أخطائه المنايا قيّدته الليالي والسنون» (الخليل بن أحمد)

في الركن القصي من مقهى كوستا المضاء الجوانب والحواف، نرى النذل جيئة ونهابا، وسط غيمة خفيفة وكأنما في كهف، أشباحه ورسومه تتموج بفيض غموضها السحيق. من طاولتك تنظرن إلى ركني القصي نظرة عاشقة أضناها غرام البحث عن ضالة جوهرها الشريد. سرحت في رجاب النشوة طويلاً تخيلت دموعاً وأشجاراً برية، عصافير وغنماً يسرح بها عذارى وعشاق.. لكن الاكتشاف لم يكن اليماء، حين عرفت أنك لا تنظرين إلى أحد.

كان هولاء يزهو بكبريائه فوق الجبال والهامات دانت له الأمم والممالك أخصنته تخطف البرق والطين من وكنايته قبل أنيلاج ضوء الصباح وحين حانت ساعة احتضاره لم يتذكر إلا مؤخرة امرأة قوقازية تهتز بمشرب في الساحة العامة بينما الجثث تتوزع في الجنبات والأفاق.

لست من العابرين ولا من المقيمين. لست إلا ذلك الشبح الامرئي وهو يحوم فوق جثة تاريخ أحالته الأعاصير الهوج إلى أتلاء وركام.

الراجلون في بهو الفندق، بالمناكب والاكتاف يتدافعون تدافع الموتي في قبورهم التي تبعثرت من غير شواهد ولا أشجار. مؤلفة الفندق في حركة عاصفة لا تفكر إلا في آخر الأسبوع وعطلة هائلة.

من أين يأتي كل هؤلاء التائهين الحيارى والثقبلي الاحمال؟ من كل الجهات يتدفقون كهدير مياه أسطورية.

لم يعد هناك مسيح يُسند أرواحهم التي توشك على الاضمحلال.

غروب على دير الراهبات يسيل شيقاً على النحور والشفاه غروب على كتنة للعسكر غروب على ضفاف الأحلام غروب على مكبرات للصوت تنعق بالكوابيس والوعيد غروب على الصبايا المراهقات يتقافرن على حبال الأمنيات غروب على المقابر والجوامع والإسبيلات غروب على الشعراء والعشاق على الجالدين والسجون غروب يحمل البلاد إلى حثفها في مقبرة السلالات...

الخلود يتناهى أحياناً في حيوات متناهية الصغر. تكاد لا ترى على وجه البسيطة والتاريخ الصاخب بالقادة والرموز، بالحروب والاكتشافات والإساطيل النرية..

بعد قليل: تذهب الأشجار إلى غروبها تعانق الظلال والأشباح.

في أي بقعة أو صقع وطأت لأول مرة قدم الجد الأول، بعد مغارته الفردوس ونفيه بسبب الخطيئة السانجة التي أسست لجمال الخطايا والجرائم اللاخقة على مر الأزمان وتصرمها؟ في أي بقعة من كوكبه المنكود كارض للعقاب والنأي عن السعادة، حين قال: (...) «تغيرت البلاد ومن عليها ووجه الأرض مغبر قبيح» كأننا كان ذلك الجد يعرف قبلاً تلك البلاد، أرض المنفى الأخير. حسب ما توحى العبارة المنسوبة إليه، وما

مقالات صفحة 10 و 13 تنشر بالاتفاق مع «الجديد» الشهرية الثقافية النذرية

